

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: 1 - 7]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا خَتَمَتْ سُورَةُ الْحَجِّ بِنَدَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَمَرِهِمْ بِأُمُورِ الدِّينِ خَاصَّةً وَعَامَّةً، وَخُتِمَ بِهَا بِوَجوبِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ والعصمة به ﷺ؛ أَوْجَبَ ذَلِكَ تَوْقِعَ الْمُؤَدِّينَ لَهَا كُلَّ خَيْرٍ؛ فَابْتَدَأَتْ سُورَةُ (المؤمنون) بِمَا يُثْمَرُ الاعتصامَ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَغَيْرِهَا مِنْ خِلَالِ الدِّينِ فِي الدَّارَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ مُفْتَتِحًا بِحَرْفِ التَّوَقُّعِ ﴿قَدْ﴾ لَتَشْبِيهِ التَّوَقُّعِ وَتَقْرِيبِ الْمَاضِي مِنَ الْحَالِ؛ لِبَيَانِ ظَفَرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّصِفِينَ بِمَا وَرَدَ فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الصِّفَاتِ الْخَاصَّةِ بِهِمْ لَا بغيرِهِمْ⁽¹⁾.

العصمة بالله
وأداء فروضه
سبيل للظفر
بصفات المؤمنين
المُلاحين

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿أَفْلَحَ﴾: (فلح) أصلان صحيحان، أحدهما يدلُّ على شَقٍّ، وَالْآخَرُ عَلَى فَوْزٍ وَبَقَاءٍ، وَالْآيَةُ مِنَ الثَّانِي؛ وَهُوَ الْفَلَاحُ: الْفَوْزُ وَالْبَقَاءُ وَالنَّجَاةُ وَإِدْرَاكُ بُغْيَةٍ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لَامْرَأَتِهِ: "اسْتَفْلِحِي بِأَمْرِكِ"؛ مَعْنَاهُ: فَوْزِي بِأَمْرِكِ⁽²⁾، وَالْفَلَاحُ ضَرْبَانِ: دُنْيَوِيٌّ وَأُخْرَوِيٌّ، فَالْدُّنْيَوِيُّ: الظَّفَرُ بِالسَّعَادَاتِ الَّتِي تَطْيِبُ بِهَا حَيَاةَ الدُّنْيَا مِنَ الْبَقَاءِ وَالْغِنَى وَالْعِزِّ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُؤَقَّتٌ، وَإِيَّاهُ قَصَدَ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ:

(1) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 13 / 104 - 105.

(2) ابن فارس، مَقَائِيسُ اللَّغَةِ، وَالزَّائِبُ، الْمَفْرَدَاتِ: (فلح).

أَفَلَحَ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يَدْرِكُ بَالٌ *** ضَعْفٍ وَقَدْ يُخَدِّعُ الْأَرِيبُ⁽¹⁾

وفلاحٌ أخرويٌّ: وهي دار الفلاح بالبقاء والغنى والعزّ، وكلُّ ذلك دائمٌ، ويؤيِّده قول رسول الله ﷺ: "لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ"⁽²⁾، ومنه الآية الكريمة⁽³⁾.

(2) ﴿خَشِيعُونَ﴾: خَشَعَ يَخْشَعُ خُشوعًا، والخُشوعُ: الضُّرَاعَةُ والخُضوعُ، وأكثرُ ما يُسْتَعْمَلُ الخُشوعُ فيما يوجدُ على الجوارح، وأكثرُ ما تُسْتَعْمَلُ الضُّرَاعَةُ فيما يوجدُ في القلب، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: 109]⁽⁴⁾، والخُشوعُ: السُّكُونُ⁽⁵⁾، وقال عليّ ﷺ: الخُشوعُ في القلب، وأنْ تُلِينَ للمرءِ المسلمِ كَنَفَكَ، ولا تَلْتَفِتْ⁽⁶⁾، ومعنى قوله تعالى: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خُشُوعُونَ﴾: مُخْبِتُونَ أَذْلَاءً⁽⁷⁾، خَائِفُونَ⁽⁸⁾، متواضعون⁽⁹⁾.

(3) ﴿اللَّغْوِ﴾: (لغو) أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى الشَّيْءِ لَا يُعْتَدُّ بِهِ، وَالْآخَرُ عَلَى اللَّهَجِ بِالشَّيْءِ، وَاللَّغْوُ مِنَ الْكَلَامِ: مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ، وَهُوَ الَّذِي يورِدُ لَا عَنْ رَوِيَّةٍ وَفَكْرٍ، فيجري مجرى اللُّغَا، وهو صوتُ العصافير ونحوها من الطُّيُورِ، وقد يُسَمَّى كُلُّ كَلَامٍ قَبِيحٍ لَغْوًا؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدْبًا﴾ [النُّبَأ: 35]، وَيُسْتَعْمَلُ اللَّغْوُ فيما لَا يُعْتَدُّ بِهِ، ومنه اللَّغْوُ في الأيمان؛ قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: 225]⁽¹⁰⁾، ومعنى قوله تعالى: ﴿عَنِ اللَّغْوِ﴾: عن المعاصي⁽¹¹⁾، والشَّتْمِ والأذى⁽¹²⁾ وكلُّ باطلٍ ولهوٍ وهزلٍ ومعصيةٍ، وما لَا يُحْمَدُ في القول والفعل⁽¹³⁾.

(1) البيت لعبيد بن الأبرص، ديوانه، ص: 26.

(2) الحديث عن أنس بن مالك، قال: قالت الأنصار يوم الخندق: "نحن الذين بايعوا محمداً...، على الجهاد ما بقينا أبداً، فأجابهم النبي ﷺ: «لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَأَكْرِمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ»، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (3795)، ومُسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1805).

(3) الرَّاغِب، المُفْرَدَات: (فلج).

(4) الرَّاغِب، المُفْرَدَات، والرَّاغِب، مختار الصحاح: (خشع).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خشع).

(6) أخرجه ابن المبارك في الزهد، الحديث رقم: (1148)، والحاكم في المُستَدْرَك، الحديث رقم: (3482)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 3/ 18، عن ابن عباس ؓ.

(8) الرِّجَاج، معاني القرآن: 6/ 4، والجِصَّاص، أحكام القرآن: 3/ 252.

(9) مُقَاتِل بن سليمان، تفسير مُقَاتِل: 3/ 152.

(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغِب، المُفْرَدَات: (لغا).

(11) عبد الرزاق الصنعاني، تفسير عبد الرزاق: 2/ 43، والنَّحَّاس، إعراب القرآن: 3/ 109، كلاهما عن الحسن البصري، وقال النَّحَّاس: "ومن أحسن ما قيل فيه قول الحسن ...، فهذا قول جامع".

(12) مُقَاتِل بن سليمان، تفسير مُقَاتِل: 2/ 29.

(13) الرِّجَاج، معاني القرآن: 6/ 4.

(4) ﴿مُعْرِضُونَ﴾: (عرض) أصل واحد تكثر فروعه، وأعرض الشيء: بدا عرضه، والعرض خص بالجانب، وأعرض: أظهر عرضه؛ أي: ناصيته، وإذا قيل: أعرض عني؛ فمعناه: ولّى مبدئاً عرضه، قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: 23⁽¹⁾]، ومنه قوله تعالى: ﴿عَنِ اللَّغْوِ مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: يتولون عن اللغو.

(5) ﴿لِلزَّكَاةِ﴾: (زكى) أصل يدل على نماء وزيادة، ويُقال: الطَّهارة زكاة المال، وقال بعضهم: سُميت بذلك؛ لأنها مما يُرجى به زكاء المال، وهو زيادته ونماؤه⁽²⁾، والمُرادُ بها في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَاةِ فَلَعْلُونَ﴾؛ أي: الصدقة الواجبة بشروطها وأنصبتها⁽³⁾، والصدقة المستحبة.

(6) ﴿فَلَعْلُونَ﴾: (فعل) أصل صحيح يدل على إحداث شيء من عملٍ وغيره، من ذلك: فعلتُ كذا أفعله فعلاً، وكانت من فلان فعلةً حسنةً أو قبيحةً، والفعال جمع فعلٍ، والفعالُ بفتح الفاء: الكرم وما يفعل من حسن⁽⁴⁾، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَعْلُونَ﴾؛ أي: مُؤدِّون⁽⁵⁾.

(7) ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾: (فرج) أصل صحيح يدل على تفتح في الشيء، من ذلك: الفرجة في الحائط وغيره: الشق، والفروج جمع فرج، وهو ما بين رجلي الفرس⁽⁶⁾.

(8) ﴿حَفِظُونَ﴾: (حفظ) أصل واحد يدل على مُراعاة الشيء، حفظ يحفظ حفظاً: حرسه، وحفظه أيضاً: استظهره، والمحافظة: المراقبة، والحفظ يُستعمل في كل تفقُّد ورعاية؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف: 12⁽⁷⁾]، ومعنى قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَفِظُونَ﴾؛ أي: مُمسكون لها بالعفاف عما لا يحلُّ لهم⁽⁸⁾.

(9) ﴿مَلَكَتْ﴾: (ملك) أصل صحيح يدل على قوّة في الشيء، ويُقال هذا الشيء ملكٌ

(1) الزاغب، المفردات، والفيروزآبادي، القاموس: (عرض).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى).

(3) البغوي، معالم التنزيل: 409/5.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فعل).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 4/18، والسمعي، تفسير القرآن: 463/3.

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرج).

(7) الزاغب، المفردات، والرازي، مختار الصحاح: (حفظ).

(8) الشوكاني، فتح القدير: 645/3.

يميني ومَلِكٌ يميني، والفتح في الميم أفصح، والمملوكُ يختصُّ في التعارفِ بالرَّقِيقِ من الأملاك، قال تعالى: ﴿عَبْدًا مَّملُوكًا﴾ [النحل: 75]؛ فالمملوكُ: العبدُ، وقد يُقال: فلانُ جوادٌ بمملوكه؛ أي: بما يملكه، والمَلِكَةُ تختصُّ بِمَلِكِ العبيد، ويُقال: فلانٌ حَسَنُ المَلِكَةِ؛ أي: الصَّنْعِ إلى ممالِيكه، وحُصِّصَ ملكُ العبيد في القرآن باليمين؛ فقال تعالى: ﴿لَيْسَتْنِيْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ [النور: 58]، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾⁽¹⁾.

10 ﴿مَلُومِينَ﴾: (لوم) كَلِمَتَانِ تَدُلُّ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْعَتَبِ وَالْعَذْلِ، وَالْأُخْرَى عَلَى الْإِطْأَاءِ⁽²⁾، فَاللُّومُ: عَذْلُ الْإِنْسَانِ بِنَسَبَتِهِ إِلَى مَا فِيهِ لَوْمٌ، يُقَالُ: لُمْتُهُ فَهُوَ مَلُومٌ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: 22]، وَالْأَمُّ: اسْتَحَقَّ اللَّوْمُ، قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي النَّيْمِ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: 40]، وَالتَّلَاوْمُ: أَنْ يَلُومَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ﴾ [القلم: 30]، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ذكر اللوم تنبيهًا على أنه إذا لم يُلاموا لم يفعل بهم ما فوق اللوم⁽³⁾، فهم لا يُلامون على الحلالِ بوطءِ زَوَاجَتِهِمْ أَوْ إِمَائِهِمْ⁽⁴⁾.

11 ﴿أَبْتَغَى﴾: بَغِيَتْ الشَّيْءُ؛ إِذَا طَلِبْتُ أَكْثَرَ مَا يَجِبُ، وَابْتَغَيْتُ كَذَلِكَ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا لَفِئْتَةً مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: 48]، وَابْتِغَى: طَلَبُ تَجَاوُزِ الْاِقْتِصَادِ فِيمَا يُتَحَرَّى، تَجَاوَزَهُ أَمْ لَمْ يَتَجَاوَزْهُ، فَتَارَةً يُعْتَبَرُ فِي الْقَدْرِ الَّذِي هُوَ الْكَمِيَّةُ، وَتَارَةً يُعْتَبَرُ فِي الْوَصْفِ الَّذِي هُوَ الْكَيْفِيَّةُ، وَبَغَى ضَالَّتُهُ يَبْغِيهَا بُغَاءً بِالضَّمِّ وَالْمَدِّ وَبُغَايَةً بِالضَّمِّ أَيْضًا: طَلَبَهَا، وَكُلُّ طَلِبَةٍ بُغَاءً، وَبَغَى لَهُ وَأَبْغَاهُ الشَّيْءُ: طَلَبَهُ لَهُ⁽⁵⁾، وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَبْتِغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ طَلَبَ سِوَى الْأَزْوَاجِ وَالْوَلَدِ؛ أَيْ: ابْتِغَى الْفَوَاحِشَ بَعْدَهُنَّ⁽⁶⁾، وَطَلَبَ مَا بَعْدَ ذَلِكَ⁽⁷⁾.

12 ﴿الْعَادُونَ﴾: (عدو) أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْفُرُوعُ كُلُّهَا، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى

(1) الزَّاعِبُ، الْفُرْدَاتُ، وَالزَّازِي، مَخْتَارُ الصَّحَاحِ: (ملك).

(2) ابن فارس، مَقَائِيسُ اللَّغَةِ: (لوم).

(3) الزَّاعِبُ، الْفُرْدَاتُ، وَالزَّازِي، مَخْتَارُ الصَّحَاحِ: (لوم).

(4) مقاتل بن سليمان، تَفْسِيرُ مَقَاتِلَ: 29/2، وَابْغَوِي، مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ: 410/5.

(5) الزَّاعِبُ، الْفُرْدَاتُ، وَالزَّازِي، مَخْتَارُ الصَّحَاحِ: (بغى).

(6) مقاتل بن سليمان، تَفْسِيرُ مَقَاتِلَ: 29/2، وَالْقُرْطُبِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ: 107/12.

(7) الرَّجَاجُ، مَعَانِي الْقُرْآنِ: 7/4.

تَجَاوَزَ فِي الشَّيْءِ وَتَقَدَّمَ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ⁽¹⁾، عدا يعدو عَدَوًا، وَعَدَاهُ يَعْدُوهُ: جَاوَزَهُ، وَالتَّعَدَّى: مَجَاوِزَةُ الشَّيْءِ إِلَى غَيْرِهِ، يُقَالُ: عَدَاهُ تَعْدِيَةً فَتَعَدَّى؛ أَيَّ: تَجَاوَزَ، وَعَدَا: أَيَّ: جَارَ وَظَلَمَ، وَعَدَا: جَاوَزَ⁽²⁾، وَهُمَا يَرْجِعَانِ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ؛ لِأَنَّ الظَّالِمَ مَجَاوِزٌ مَا حُدَّ لَهُ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْعَادُونَ﴾؛ أَيَّ: الْجَائِرُونَ الظَّالِمُونَ⁽³⁾ يَتَعَدَّونَ الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ⁽⁴⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ بَعْضِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ فَازُوا وَسَعَدُوا وَحَصَلُوا عَلَى الْفَلَاحِ، أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ: الَّذِينَ تَقَرَّغُ قُلُوبُهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ، وَتَسْكُنُ جَوَارِحُهُمْ فِيهَا، وَهُمْ عَنِ الْبَاطِلِ وَالْمَعَاصِي وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ تَارِكُونَ، وَهُمْ مُؤَدِّونَ لَزَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ، وَمُزَكَّوْنَ أَنْفُسِهِمْ عَنِ الشَّرِّكَ وَالذَّنْسِ، وَهُمْ قَدْ حَفِظُوا فُرُوجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ الَّذِي نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الزِّنَى وَاللَّوْاطِ وَكُلِّ الْفَوَاحِشِ، وَلَا يَقْرَبُونَ سِوَى أَزْوَاجِهِمُ الَّتِي أَحَلَّهَا اللَّهُ لَهُمْ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنَ السَّرَارِيِّ، وَمَنْ تَعَاطَى مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ وَلَا حَرَجَ، وَأَمَّا مَنْ ابْتَغَى مَا وَرَاءَ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْإِمَاءِ، فَقَدْ تَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ وَظَلَمَ نَفْسَهُ؛ فَهُوَ مِنَ الْمَجَاوِزِينَ الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ، وَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِعِقَابِ اللَّهِ وَسُخْطِهِ⁽⁵⁾.

وَتَرشُدُ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ إِلَى الْحَثِّ عَلَى الْإِتِّصَافِ بِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَالتَّرغِيبِ فِيهَا، وَأَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي أَنْ يَعْضَرَ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ؛ حَتَّى يَعْرِفَ بِذَلِكَ مَا مَعَهُ وَمَا مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْإِيمَانِ

تَحَقُّقُ الْمُؤْمِنِينَ
بِصِفَاتٍ
تَجْعَلُهُمْ مِنَ
الْمُفْلِحِينَ

مَنْ أَحْسَنَ فِي
صَلَاتِهِ أَحْسَنَ
فِي صَلَاتِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدو).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (عدا).

(3) الزجاج، معاني القرآن: 4 / 7.

(4) الجشمي، التهذيب: 6 / 193.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3 / 225 - 226، ونخبة من العلماء، التفسير المبسّر، ص: 342.

زيادةً ونقصًا، وإلى أنَّ حضور القلب بين يدي الله تعالى الذي تنتفي به الوسوسُ والأفكار الرديئةُ هوروح الصلاة والمقصود منها، وهو الذي يُكتب للعبد؛ فالصلاة التي لا خشوع ولا حضور قلب فيها - وإن كانت مُجزئة الأداء مُثابًا عليها - إلا أنَّ الثواب الوافي فيها على حَسَب ما يعقل القلب منها، وتُرشد الآيات إلى الإحسان في عبادة الخالق في الخشوع في الصلاة، وإلى الإحسان إلى خلقه بأداء الزكاة، ويدلُّ عمومُ ابتغاء ما أحلَّ الله على تحريم نكاح المتعة؛ فالمرأة فيه ليست زوجةً حقيقةً مقصودًا بقاؤها ولا مملوكة، ويدلُّ على تحريم نكاح المحلل لذلك⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

براعة الاستهلال في السورة الكريمة:

افتتاحٌ بديعٌ صُدِّرت به هذه السورة الكريمة؛ لأنَّه من جوامع الكلم، فإنَّ الفلاح غاية كلِّ ساعٍ إلى عمله، ولما كانت همة المؤمنين مُنصرِفةً إلى تمكُّن الإيمان والعمل الصالح من نفوسهم؛ كان ذلك إعلامًا بأنَّهم نجحوا فيما تعلَّقت به همُّهم من خير الآخرة والحق من خير الدنيا، ويتضمَّنُ بشارَةً برضى الله عنهم، ووعدًا بأنَّ الله مُكَمِّلٌ لهم ما يتطلَّبونه من خير⁽²⁾، والسورة مقصودها الأعظم اختصاص المؤمنين بالفلاح⁽³⁾؛ فكان ما افتتحت به ذا إيماءٍ إلى ما ستتلوه من مقصودٍ كُلِّيٍّ ومقاصدٍ جزئيةٍ شارحةٍ له.

معنى ﴿قَدْ﴾ ونكتة دخولها على الفعل الماضي:

﴿قَدْ﴾ حرفٌ يوجبُ به الشَّيء؛ كقولك: قد كان كذلك، والخبر أن تقول: كان كذا، فأدخل ﴿قَدْ﴾ تأكيدًا لتصديق ذلك⁽⁴⁾، ودخول

جوامع الكلم
تفتح بوارق
الخير والأمل

الفلاح حال
متحقق
للمؤمنين

(1) السَّعْدِيُّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 547.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 / 18.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 5 / 182.

(4) الأزهرى، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قد).

(قد) على الفعل الماضي لتقرّبه من الحال⁽¹⁾ حتّى تلحقه بحكمه، كما يقولون: (قد قامت الصلاة) قبل حال قيامها⁽²⁾.
والحال في الفعل الماضي لا يكون إلا بإضمار (قد) أو بإظهارها؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: 90]، ولا يكون ﴿حَصِرَتْ﴾ [النساء: 90] حالاً إلا بإضمار (قد)⁽³⁾، ف ﴿قَدْ﴾ هنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين، ويجوز أن تكون تقرّيباً للماضي من الحال، ويكون المعنى أن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه في الحال، ووراء هذا من المعنى مدحهم، وعظيم الترغيب في التّأسي بهم في أحوالهم؛ فيكون في ذلك تشوّف وتشوّق لمعرفة هاتيك الأحوال؛ وهذا ما ستتلوه الآيات عقب هذه الآية الأولى.

فائدة التوكيد مع أنّ الأمر لم يتحقّق بعد:

لما أفادت ﴿قَدْ﴾ توكيد المتوقّع وتثبيته في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ دلّت على أنّ المؤمنين كانوا متوقّعين مثل هذه البشارة؛ وهي الإخبار بثبات الفلاح، فخطبوا بما دلّ على ثبات ما توقّعوه⁽⁴⁾.

غرض حذف متعلّق الفلاح:

الإخبار بفلاح المؤمنين بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ دون ذكر متعلّق بفعل الفلاح، يقتضي في المقام الخطابّي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: (قد أفلح المؤمنون في كلّ ما رغبوا فيه)؛ أي: أفلحوا فلاحاً كاملاً⁽⁵⁾.

معنى (أل) في ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ ودلالة الاسم:

عبّر النظم القرآني بالاسم ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ المحلّي بـ (أل) إشارة

الخطاب بثبات
المتوقّع، وتحقّقه
لا محالة

تحقّق فلاح
المؤمنين في
كلّ ما قصدوا
حصوله

تحقّق الإيمان
بمَن اتّصف
بأعماله

(1) البقاعي، نظم الدرر: 105 / 13.

(2) ابن يعيش، شرح الفُصل: 147 / 8، وأبو حيان، ارتشاف الضرب: 256 / 3، وابن هشام، مُغني

الليبي: 195 / 1.

(3) الفراء، معاني القرآن: 24 / 1.

(4) الرّمخشي، الكشاف: 25 / 3.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 / 18.

إلى أن مَنْ أَقَرَّ بِالْإِيمَانِ وَعَمَلَ بِمَا أُمِرَ بِهِ فِي آخِرِ السُّورَةِ الَّتِي قَبْلَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٧٧ [الحج: 77 - 78] إلى قَوْلِهِ: ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ [الحج: 78]؛ فقد استحقَّ الوصفَ الثَّابِت؛ لَأَنَّهُ اتَّقَى وَأَنْفَقَ مِمَّا رَزَقَ وَجَاهَدَ وَصَلَّى وَزَكَّى وَاعْتَصَمَ بِاللَّهِ^(١)، وَذَلِكَ يَشْمَلُ كُلَّ مُؤْمِنٍ فِي كُلِّ عَصْرِ وَمِصْرٍ وَجَنَسٍ؛ فَ(أَل) فِيهِ لِلْجَنَسِ.

نكتة فصل قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾:

استئناف تعريف
بصفات المؤمنين
المفلحين

جاء قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ اسْتِنْفَافًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تعريفًا بهم وبصفاتهم الموضحة والمادحة لهم، حَسَبَ اعْتِبَارِ مَا ذَكَرَ فِي حَيْزِ الصَّلَاةِ مِنَ الْمَعَانِي مَعَ الْإِيمَانِ إجمالًا أو تفصيلًا^(٢)، وَهُوَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ اسْتِنْفَافًا بَيَانِيًّا؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ بِالْفَلَاحِ الْمُؤَكَّدِ الْمُحَقَّقِ عَامًّا الْمُتَعَلِّقِ يُشَوِّقُ إِلَى مَعْرِفَةِ أَوْصَافِ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحَرِّكَ الْمُتَلَقِّيَ لِسُؤَالٍ عَنْ ذَلِكَ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا مِمَّا فِي سِيَاقِهَا جَوَابًا عَنْهُ.

غرض التعبير بالاسم الموصول وتكريره:

الخلال التي بها
فلاح المؤمنين

أَجْرَى النَّظْمُ الْكَرِيمُ الصِّفَاتِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّعْرِيفِ بِطَرِيقِ الْمَوْصُولِ وَبِتَكَرِيرِهِ؛ لِلْإِيْمَاءِ إِلَى وَجْهِ فَلَاحِهِمْ وَعِلَّتِهِ؛ أَيَّ إِنَّ كُلَّ خَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ هِيَ مِنْ أَسْبَابِ فَلَاحِهِمْ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ كُلَّ خَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ سَبَبٌ لِلْفَلَاحِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ أَنْ سَبَبَ فَلَاحِهِمْ مَجْمُوعُ الْخِصَالِ الْمَعْدُودَةِ هُنَا، فَإِنَّ الْفَلَاحَ لَا يَنْبَغُ إِلَّا بِخِصَالٍ أُخْرَى مِمَّا هُوَ مَرْجِعُ التَّقْوَى، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتْ كُلُّ خَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ تُتَبَيَّنُ عَنْ رِسْوَةِ الْإِيمَانِ مِنْ صَاحِبِهَا؛ اعْتَبِرَتْ لِذَلِكَ

(١) الْبِقَاعِي، نَظْمُ الدُّرَرِ: ١٣ / ١٠٥.

(٢) أَبُو الشُّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: ٤ / ٤٨.

سبباً للفلاح، وصُدِّرت بالاسم الموصول⁽¹⁾، وفي التعبير بالموصول مدحهم، وفي تكريره إبلاغ فيه؛ تأسيساً على أنَّ الصلة بيانٌ وتعريف للموصول المبهم الغامض.

نكتة التعبير في الخشوع بالجملة الاسمية:

الجملة الاسمية تقتضي الثبات، وكذلك هنا في وصف المؤمنين عُبر بالجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿هُم فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، فهم في ثبات في صفة الخشوع؛ أي: الخشوع مصاحبٌ لهم في صلاتهم لا يُغادرهم، وهو كناية عن تعلق قلوبهم بالله، وشدة الخوف منه ﷻ، ولذلك جاء الإخبار بثبات الفلاح لهم فخطبوا بما اتصفوا به، ومنه ثباتهم في الخشوع لهم في صلاتهم ودوامه⁽²⁾.

فائدة التعبير بالطرفية ﴿فِي﴾:

التعبير بالحرف ﴿فِي﴾ يُفيدُ الطرفية الداخلة في عمق زمن إقامتهم وأدائهم للصلاة، فكأنَّهم انغمسوا في قلب صلاتهم فدخلوا في محراب وجدانها، فأصبحوا جزءاً منها وأصبحت جزءاً منهم، لا ينفكون عنها ولا تنفك عنهم، وزاد هذا التعبير قوة خشوعهم فيها، ولذلك قال تعالى: ﴿هُم فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾:

الأصل أنَّ الجار متعلق بما بعده، ولكنه قُدِّم هنا فقال: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ للاهتمام به؛ وهو أمر إقامة الصلاة في حياتهم، وحسنه كون متعلقه فاصلة، وكذلك هو الحال فيما بعده من أخواته⁽³⁾، وللايذان بأنَّ لهم تعلقاً شديداً بالصلاة؛ لأنَّ شأن الإضافة أن تُفيدَ شدة الاتصال بين المضاف والمُضاف إليه؛ لأنها

الخشوع
صفة ملزمة
للمؤمنين
الفلحين

الصلاة جزء
أصيل مهم في
حياة المؤمن

ضرورة الاهتمام
بشأن الصلاة؛
فهي أعظم
فرائض الإسلام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9 / 18.

(2) السمين الحلبي، الدُّرُّ للصون: 315 / 8.

(3) السمين الحلبي، الدُّرُّ للصون: 315 / 8.

على معنى لام الاختصاص، فلو قيل: (الَّذِينَ إِذَا صَلَّوْا خَشَعُوا)؛
فَاتَ هَذَا الْمَعْنَى⁽¹⁾.

نكتة إضافية الصلاة إلى ضمير المؤمنين:

لِلْمُؤْمِنِينَ هُمْ
الْمُتَّقِينَ هُمْ
بِالصَّلَاةِ

أُضِيفَتِ الصَّلَاةُ إِلَى ضَمِيرِ ﴿هُمُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمُ فِي صَلَاتِهِمْ﴾؛ لِأَنَّهُمْ هُمْ الْمُتَّقُونَ بِهَا وَبَثْمَرَاتِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهِيَ عُدَّتُهُمْ وَذَخِيرَتُهُمْ، وَالْمُصَلِّي لَهُ - وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى - غَنِيٌّ عَنْهَا وَعَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا⁽²⁾، وَفِيهَا إِيْمَاءٌ إِلَى كَمَالِ عِنَايَتِهِمْ بِهَا فِي نَوْرِ تَوْجِيهَاتِ الشَّرْعِ الْحَنِيفِ؛ كَأَنَّهَا مِنْ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ وَمِنْ مَحَلِّ رِعَايَتِهِمْ؛ وَأَنَّهُمْ لِذَلِكَ يَقْبَلُونَ عَلَيْهَا وَيَرْتَاخُونَ فِيهَا.

نكتة ذكر الخشوع مع أنه ليس من أركان الصلاة:

الصَّلَاةُ أُولَى
مَوَاضِعِ الْخُشُوعِ
وَأَعْلَاهَا مَنْزِلَةٌ

الْخُشُوعُ: خَوْفٌ يُوجِبُ تَعْظِيمَ الْمَخُوفِ مِنْهُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْخُشُوعَ لِلَّهِ يَقْتَضِي التَّقْوَى فَهُوَ سَبَبُ الْفَلَاحِ، وَفِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخُشُوعِ فِي صَلَاتِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ مع أنه ليس من أركانها؛ لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع، وخاصةً إذا كان في حال الصلاة؛ لأنَّ الخشوعَ لله يكون في حال الصلاة وفي غيرها، إذ الخشوعُ محلُّه القلب؛ فليس من أفعال الصلاة، ولكنَّه يَتَلَبَّسُ الْمُصَلِّي فِي حَالَةِ صَلَاتِهِ، وَذَكَرَ مَعَ الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ أُولَى الْمَوَاضِعِ بِإِثَارَةِ الْخُشُوعِ وَقُوَّتِهِ وَلِذَلِكَ قُدِّمَتْ؛ وَلِأَنَّهُ بِالصَّلَاةِ أَعْلَقَ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ خُشُوعٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَخُضُوعٌ لَهُ؛ وَلِأَنَّ الْخُشُوعَ لَمَّا كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى كَانَ أُولَى الْأَحْوَالِ بِهِ حَالُ الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّ الْمُصَلِّي يُنَاجِي رَبَّهُ فَيُشْعِرُ نَفْسَهُ أَنَّهُ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ فَيَخْشَعُ لَهُ، وَهَذَا مِنْ آدَابِ الْمَعَامَلَةِ مَعَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ تَعَالَى؛ وَهِيَ رَأْسُ آدَابِ الشَّرْعِيَّةِ وَمَصْدَرُ الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا⁽³⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18.

(2) الرَّمْخُسَرِيُّ، الْكَشَافُ: 25 / 3.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9 / 18.

بلادة الإيجاز في الآية:

جاء الإيجاز في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ في أَجَلَى معانيه، إذ إنَّ من شأن المؤمنين المُفلحين الشَّوْقُ للصَّلاة بإقامتها وأدائها، فهي أساسُ الفروض، ورأسُ العبادات، ولذلك اسْتُخدمَ النَّظْمُ الكريمُ كلماتٍ قليلةٍ مع ما ترمي إليه من معانٍ جليلةٍ عظيمة، فعَرَّفَ المؤمنينَ المُفلحينَ بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ باستعمالِ اسْمِ الموصول وصلته، ثمَّ بقوله: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ بتقييدِ الخشوع بكونه في الصَّلاة، فجمع لهم بين الصَّلاة والخشوع، مع بيانِ تعلُّقِهِمُ الشَّدِيدِ بالصَّلاة، ولم يأتَ وصفهم بكونهم خاشعين إلا بالجملة الاسميَّة وما تدلُّ عليه من ثباتِ الخشوع لهم ودوامِهِ؛ أي: كَوْنُ الخُشُوعِ خُلُقًا لهم بخلافِ نحو: (الَّذِينَ خَشَعُوا)، فحصل الإيجاز، ولم يَفُتِ الإعجاز⁽¹⁾.

الخشوع في
الصَّلاة سجيَّة
ثابتة للمؤمنين

نكتة عطف قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾:

العطف في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ هو من قبيلِ عطفِ الصِّفَاتِ لموصوفٍ واحدٍ؛ وهو هنا المؤمنون في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: المؤمنون الذين من صفاتهم أنَّهم عن اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ؛ لأنَّ الإعراضَ عن اللَّغْوِ من صفات المؤمنين المُفلحين⁽²⁾.

عطفُ صفةٍ
على ما تقدَّمها
لموصوفٍ واحدٍ

غرض التعبير بالاسم الموصول:

صُدِّرت هذه الصِّفةُ بالاسمِ الموصولِ ﴿وَالَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾؛ لبيان سببٍ آخر من أسبابِ فلاحِ المؤمنين، وَوَجَّهَ آخرَ من وجوه ما يستحقُّون به هذا الثَّناء العظيم بجعلِهِم من أهلِ الفلاح⁽³⁾.

بيانُ سببٍ من
أسبابِ فلاحِ
المؤمنين

(1) ابن عاشور، التَّحْريْر والتَّنْويْر: 10 / 18.

(2) ابن عاشور، التَّحْريْر والتَّنْويْر: 10 / 18.

(3) ابن عاشور، التَّحْريْر والتَّنْويْر: 10 / 18.

صفات الفلاح
تتکامل وترقى
في نفوس
أصحابها

نكتة تكرار الاسم الموصول وصلته، والإظهار في مقام الإضمار:

نُظِمَت الصِّفَاتُ مَعَ تَصْدِيرِهَا بِالاسْمِ الْمَوْصُولِ وَصَلَتِ؛ لِتَنْتَازِعَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا هُمْ أَهْلُهُ، وَفِي إِعَادَةِ الاسْمِ الْمَوْصُولِ مَعَ صَلَاتِهِ دُونَ اكْتِفَاءٍ بِعُطْفِ صَلَاةٍ عَلَى صَلَاةٍ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ مُوجِبَةٌ لِلْفَلَاحِ، فَلَا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ حَتَّى يَجْمَعُوا بَيْنَ مَضَامِينِ الصَّلَاةِ كُلِّهَا فَحَسَبَ، وَلِمَا فِي الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ مِنْ زِيَادَةِ تَقْرِيرٍ لِلخَبَرِ فِي ذَهَنِ السَّامِعِ بَعْدَ تَشَوُّفِهِ لِمَعْرِفَتِهِ وَالْوَقُوفِ عَلَى مَضْمُونِهِ⁽¹⁾، وَهَذَا يَنْظُرُ إِلَى تَحْقِيقِ فِعْلِ الْفَلَاحِ وَتَوْكِيدِهِ بِ «قَدْ» فِي صَدْرِ السُّورَةِ؛ فَكَمَا كَانَ تَحْقِيقُ وَتَوْكِيدُ فِي الْمَجْمَلِ كَانَ مِثْلُهُ فِي التَّفْصِيلِ، وَفِي التَّكْرَارِ تَنْبِيْهُ عَلَى اسْتِوَاءٍ أَوْ تَقَارُبِ قُوَّةٍ تَسَبُّبِ مَا يَرِدُ فِي حَيْزِ كُلِّ مَوْصُولٍ مِنْ صَلَاةٍ، فِي حَصُولِ الْفَلَاحِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ فَوَائِدِ التَّكْرَارِ: حَصُولُ التَّمَاسُكِ وَالتَّرَابُطِ بَيْنَ الْآيَاتِ وَمَعَانِيهَا.

نكتة التعبير بالجملة الاسمية في الإعراض عن اللغو:

لَمْ يَأْتِ النِّظْمُ الْقُرْآنِيُّ بِقَوْلِهِ فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ: (أَعْرَضُوا عَنِ اللَّغْوِ)، أَوْ بِقَوْلِهِ: (كَانُوا عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضِينَ)، وَإِلَّا يَفُتُّ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» مِنْ ثَبَاتِ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ اللَّغْوِ وَدَوَامِهِ، فَإِعْرَاضُهُمْ عَنِ اللَّغْوِ ثَابِتٌ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ حَتَّى أَصْبَحَ صِفَةً مُلَازِمَةً لَهُمْ⁽²⁾.

فائدة تقديم شبه الجملة «عَنِ اللَّغْوِ»:

فِي تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «عَنِ اللَّغْوِ» عَلَى الْخَبَرِ «مُعْرِضُونَ» إِفَادَةُ الْحَصْرِ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ اللَّغْوِ، وَتَرْكُهُ بِالْكُلِّيَّةِ⁽³⁾، وَفِي تَقْدِيمِهِ أَيْضًا: تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّهُمْ أَدْرَكُوا أَنَّ اللَّغْوَ مِمَّا

ثبات المؤمنين في
إعراضهم عن
اللغو

إفادة الحصر
في الإعراض
عن اللغو
وانصرافهم عنه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18.

(3) الألويسي، روح المعاني: 208 / 9.

ينبغي التَّوَلَّى والإعراض عنه؛ فقد عَرَفُوهُ؛ ولذلك حذروا منه، وهذا يعني أنَّ من أسبابِ فلاح هؤلاء المؤمنين أنَّهم يعبدون الله على عِلْمٍ، والعبادة القليلة مع العلم خيرٌ من العبادة الكثيرة مع الجهل.

معنى (أل) في «اللغو»:

(أل) في قوله ﷻ: «اللغو» لإفادَةِ جِنْسٍ ما يدخلُ في معنى اللغو ممَّا لا يُعتدُّ به من الأقوال والأفعال، وكلُّ باطل، وما شاعَ في الكلام الذي يورَدُ لا عن رَوِيَّةٍ وفكرٍ، وكلُّ كلامٍ قبيح⁽¹⁾.

نكتة التعبير بالإعراض مادَّةً وصيغَةً:

عبَّرَ النظمُ الكريمُ عن اجْتِنَابِ المؤمنين للغو باسمِ الفاعل في قوله تعالى: «مُعْرِضُونَ»، وهذا أبلغُ من أن يُقال: (لا يلهون)، أو: (يتركون)، فإقامةُ الإعراضِ مقامَ التَّركِ ليدلَّ على تباعدِهِم عنه رأسًا مباشرةً وتَسَبُّبًا ومَيَّالًا وحُضورًا، فإنَّ أصله أن يكونَ في عُرْضٍ؛ أي: ناحيةٍ غيرِ عُرْضِهِ، فالإعراضُ يشمل التَّركَ وزيادة، و«مُعْرِضُونَ» اسْمٌ دالٌّ على الاستمرار؛ أي: يدخلُ فيه إعراضُهم عن اللغو في عامَّةِ أوقاتهم؛ حتى صار تركه والانصرافُ عنه طبعًا فيهم، وديدنًا لهم.

فائدة التعقيب عن اللغو بعد وصفهم بالخشوع:

عَقَّبَ النظمُ القرآنيُّ ذِكْرَ الخشوعِ بِذِكْرِ الإعراضِ عَنِ اللغو؛ لأنَّ الصَّلَاةَ في الأصلِ الدُّعاء، وهو من الأقوالِ الصَّالحةِ فكان اللغو ممَّا يخطرُ بالبالِ عندِ ذِكْرِ الصَّلَاةِ بجامعِ الضَّدِّيَّةِ؛ فكان الإعراضُ عن اللغو بمعنَيي الإعراضِ ممَّا تقتضيه الصَّلَاةُ والخشوعُ؛ لأنَّ مَنْ اعْتَادَ القولَ الصَّالحَ تَجَنَّبَ القولَ الباطلَ، وَمَنْ اعْتَادَ الخشوعَ لِلَّهِ تَجَنَّبَ قولَ الزُّورِ⁽²⁾، فالإعراضُ عَنِ اللغو من مُتَمِّمَاتِ الصَّلَاةِ⁽³⁾؛

المؤمنون
مُعْرِضُونَ
عن
كلِّ ما يعنيه
اللغو

اجتناب المؤمنين
للغو صار طبعًا
لهم في عامَّةِ
أوقاتهم

الإعراض عن
اللغو ممَّا
تقتضيه الصَّلَاةُ
والخشوع

(1) الألوسي، روح المعاني: 208 / 9.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11 / 18.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 261 / 23.

فجاء وصفهم بالإعراض عن اللغو بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة؛ ليجمع لهم الفعل والتترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف⁽¹⁾.

والحاصل أن الصفة الثانية من شأنها أن تحقق الأولى وتؤكد لها؛ لأن حصول اللغو أثناء الصلاة أو بعد الصلاة مما من شأنه أن يتسبب في نقص الخشوع؛ فكأن هاتين الصفتين صفة واحدة كبيرة؛ وإن نظمتا في آيتين.

نكتة عطف قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾:

تقوية الثناء على
المؤمنين المفلحين

ورد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ من قبيل عطف صلة على صلة؛ تقوية للثناء على المؤمنين⁽²⁾ الذين وصفوا بالفلاح المحقق في صدر السورة في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وسرداً للأوصاف التي تسببت في وصفهم بالفلاح في مطلع السورة.

غرض التعبير بالاسم الموصول:

التعريف بأن
صفة أداء الزكاة
من أسباب
الفلاح

إجراء الصفات على المؤمنين بالتعريف بطريق الموصول؛ للإيماء إلى وجه فلاحهم وعلته؛ أي: هذه الخصلة من هاته الخصال للمؤمنين هي من أسباب فلاحهم، وهي تبنى عن رسوخ الإيمان من صاحبها، لذلك اعتبرت سبباً للفلاح⁽³⁾.

غرض التعبير بالجملة الاسمية في أداء الزكاة:

ثبات المؤمنين
على فعل الزكاة

التعبير بالجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿هُم لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾؛ للدلالة على ثبات المؤمنين من فاعلي الزكاة في أدائها ودوامهم على إتيانها لمستحقيها⁽⁴⁾.

(1) الزمخشري، الكشاف: 26/3.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/18، 13.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/18، 13.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/18، 13.

نكتة تكرار الاسم الموصول وصلته، والإظهار في مقام الإضمار:

تكرار الاسم الموصول (الذين) مع صلته ﴿هُم﴾؛ للإشارة إلى أن كل صفة من الصفات موجبة للفلاح، فلا يُتوهم أنهم لا يُفلحون حتى يجمعوا بين مضامين الصلاة كلها، ولما في الإظهار في مقام الإضمار من زيادة تقرير للخبر في ذهن السامع⁽¹⁾.

كل صفة من
صفات المؤمنين
موجبة للفلاح
مقررة له

معنى (الآدم) في ﴿لِلزَّكَاةِ﴾:

الآدم في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَاةِ﴾ للتقوية؛ لضعف العامل بالفرعية، وبالتأخير عن معموله، ويجوز أن تكون لام التعليل؛ لأن الزكاة فيها معنى تزكية النفس⁽²⁾، ويمكن أن تكون اللام لتقوية العمل من وجهين، تقديم الم معمول، وكون العامل اسماً⁽³⁾؛ أي: أثبت اللام تقوية لاسم الفاعل في قوله: ﴿فَعَلُّونَ﴾⁽⁴⁾.

الآدم لتقوية
أداء الزكاة أو
لتعليله

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿لِلزَّكَاةِ﴾:

تقدم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَاةِ﴾ على ﴿فَعَلُّونَ﴾؛ لمزيد الاهتمام بشأن الزكاة، وبيان مصب الفائدة في الإنفاق المأمور به فيما يليق بصاحبه فعله على وجه الطاعة لله، وأداء حقوق العباد عليه⁽⁵⁾، وللتنبية على أن فعل الزكاة لم يكن من فاعليها إلا من بعد علم بحقيقة الزكاة وثمرتها ومنافعها، إلى آخر ما يتعلق بها مما يُفيد معرفته في حصول الفلاح بالزكاة، وللايذان بأن لهم تعلقاً شديداً بإيتاء الزكاة؛ لأن شأن الإضافة أن تُفيد شدة الاتصال بين المضاف والمضاف إليه؛ لأنها على معنى لام الاختصاص⁽⁶⁾.

التنبية على
أهمية الزكاة،
والتعلق الشديد
بفعالها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18، 13.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18، 13، وينظر: الراغب، المفردات: (زكي).

(3) الألوسي، روح المعاني: 9 / 208.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 13 / 107.

(5) الألوسي، روح المعاني: 9 / 208.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18، 13.

معنى (أل) في ﴿الزَّكَاةُ﴾:

الزَّكَاةُ فَرِيضَةٌ
رَبَّانِيَّةٌ مَعْلُومَةٌ
مِنَ الدِّينِ
بِالضَّرُورَةِ

(أل) في قوله تعالى: ﴿الزَّكَاةُ﴾ للعهد؛ أي: الزَّكَاةُ المعهودة المفروضة في الأموال على المسلمين - بحسب حالهم وأزمانهم - بشروطها وأنصبتها ومصارفها؛ لأنَّ هذه اللَّفْظَةُ قَدْ اخْتُصَّتْ فِي الشَّرْعِ بِهَذَا الْمَعْنَى⁽¹⁾، يقول ابن عاشور: "والسَّورَةُ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَلَا اعْتِدَادَ بِتَوْقُفٍ مَنْ تَوَقَّفَ فِي ذَلِكَ بِأَنَّ الْآيَةَ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا الزَّكَاةُ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ تُعَيِّنُ أَنَّهَا مَدَنِيَّةٌ؛ لِأَنَّ الزَّكَاةَ فُرضَتْ فِي الْمَدِينَةِ، فَالزَّكَاةُ الْمَذْكُورَةُ فِيهَا هِيَ الصَّدَقَةُ لَا زَكَاةَ النَّصَبِ الْمُعَيَّنَةِ فِي الْأَمْوَالِ، وَإِطْلَاقُ الزَّكَاةِ عَلَى الصَّدَقَةِ مَشْهُورٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: 7-6] وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَقَالَ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مُزَيْم: 54 - 55] وَلَمْ تَكُنْ زَكَاةُ النَّصَبِ مَشْرُوعَةً فِي زَمَنِ إِسْمَاعِيلَ⁽²⁾.

نكتة التعبير بالفعل مادَّةً وصيغةً:

أداء الزَّكَاةِ فَعْلٌ
يَقُومُ بِهِ مَنْ
وَقَّعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ

الزَّكَاةُ اسْمٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ عَيْنٍ وَمَعْنَى؛ فَالْعَيْنُ: الْقَدَرُ الَّذِي يُخْرِجُهُ الْمَرْكِيُّ مِنَ النَّصَابِ إِلَى الْفَقِيرِ؛ وَالْمَعْنَى: فَعْلُ الْمَرْكِيِّ الَّذِي هُوَ التَّزْكِيَةُ، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَجَعَلَ الْمَرْكِيَّ فَاعِلِينَ لَهُ، وَلَا يَسُوءُ فِيهِ غَيْرُهُ؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ مَصْدَرٍ إِلَّا يُعَبَّرُ عَنْ مَعْنَاهُ بِالْفِعْلِ، وَيُقَالُ لِمُحْدِثِهِ: فَاعِلٌ، تَقُولُ لِلضَّارِبِ: فَاعِلُ الضَّرْبِ، وَلِلْقَاتِلِ: فَاعِلُ الْقَتْلِ، وَلِلْمَرْكِيِّ: فَاعِلُ الزَّكَاةِ، وَعَلَى هَذَا الْكَلَامُ كُلُّهُ، وَالتَّحْقِيقُ فِيهِ: أَنَّكَ تَقُولُ فِي جَمِيعِ الْحَوَادِثِ مَنْ فَاعِلٌ هَذَا؟ فَيُقَالُ لَكَ: فَاعِلُهُ اللَّهُ، أَوْ بَعْضُ الْخَلْقِ، مِمَّنْ خَلَقَ اللَّهُ الْفِعْلَ عَلَى أَيْدِيهِمْ وَجَعَلَهُمْ مُحَلًّا لَهُ، وَلَمْ يَمْتَنِعِ الزَّكَاةُ الدَّالَّةُ عَلَى الْعَيْنِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهَا ﴿فَاعِلُونَ﴾؛ لِخُرُوجِهَا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 136، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 261.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 6.

من صحّة أن يتناولها الفاعل⁽¹⁾، وكذلك يُقال: إنّما أوتِرَ هنا الاسمُ الأعمُّ وهو ﴿فَعِلُونَ﴾؛ لأنَّ مادّةَ (فعل) مُشْتَهَرَةٌ في إسداءِ المعروف، واشْتَقَّتْ منها الفَعَالُ بفتح الفاء⁽²⁾، فهي أبلغ في سياق مدحهم هذا المدح العظيم بالفلاح العظيم.

نكتة التعبير عن الزكاة بالفعل دون الإيتاء أو الأداء:

آثر السياق الكريمُ التعبيرَ بالفعل في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾، على معنى فعلهم للزكاة هو إيتاؤها مُسْتَحَقَّيْهَا أو تأديتها لهم، ولكنَّ التَّظَمَ الكريمَ عبَّرَ عن الإيتاء أو التَّأْدِيَةِ بالفعل؛ لأنَّها ممَّا يَصْدُقُ عليه الفعل⁽³⁾ في مادّته - كما تقدّم آنفاً - في استعمالها في إسداءِ المعروف.

الزَّكَاةُ مِمَّا
يَصْدُقُ عَلَيْهِ
التَّعْبِيرُ بِالْفِعْلِ

فائدة الحديث عن فعلهم للزكاة بعد ما تقدّم من صفاتهم:

جاء وصفُ المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ بعد وصفهم بالخشوع في الصَّلَاةِ للدلالة على أنَّهم بلغوا الغايةَ القاصيةَ من القيام بالطَّاعَاتِ البدنيَّةِ والماليَّةِ، وتجنُّبِ المحرَّمَاتِ وسائرِ ما توجبُ المروءةَ اجْتِنَابَهُ، وتوسيطُ حديثِ الإعراضِ بينهما؛ لكمالِ ملابسته بالخشوع في الصَّلَاةِ⁽⁴⁾.

بلوغُ المؤمنين
الغايةَ
القُصوى من
أداءِ الطَّاعَاتِ
البدنيَّةِ، وتجنُّبِ
المحرَّمَاتِ

مناسبة الترتيب بين الآيات:

فُصِّلَ بينهما هنا بالإعراضِ عن اللغو؛ لأنَّ الصَّلَاةَ في الأصلِ الدُّعاءَ، وهو من الأقوالِ الصَّالحةِ؛ فكان اللغو ممَّا يخطُرُ بالبالِ عند ذِكْرِ الصَّلَاةِ بجامعِ الصِّدِّيَّةِ⁽⁵⁾، وإذا كانت صفة الإعراض عن اللغو من تمام صفة الخشوع في الصَّلَاةِ من حيث إنّ الثَّانِيَةَ تُحَقِّقُ

(1) الرَّمْخَشَرِي، الكَشَاف: 26 / 3.

(2) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِير: 12 / 18.

(3) الشُّوكَانِي، فَتْحُ الْقَدِير: 645 / 3.

(4) أبو السَّعُود، إرشاد العقل السليم: 49 / 3.

(5) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِير: 11 / 18.

وتوكّد الأولى؛ فإنّ صفة فعل الزّكاة هنا تتّبع من صفة الإعراض عن اللّغو هنا نفس الموقّع؛ فتأدية الزّكاة تحقّق التّطهّر من اللّغو؛ كما ورد في حديث النّبي ﷺ: "والصدقة تُطفئ الخطيئة كما يُطفئ الماء النّار"⁽¹⁾.

نكتة عطف قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾:

ذكر النّظم القرآني حفظ الفروج في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ عطفًا على الإعراض عن اللّغو؛ لأنّ من الإعراض عن اللّغو ترك اللّغو بالأخرى؛ لأنّ زلّة الصّالح قد تأتيه من انّفاتٍ أحد هذين العُصوين - اللسان والفرج - من جهة ما أودع في الجبلة من شهوة استعملهما، فلذلك ضبطت الشريعة استعمالهما بأن يكون في الأمور الصّالحة التي أرشدت إليها الديانة⁽²⁾.

وجاء - كذلك - عطف صفة حفظ الفرج على صفة أداء الزّكاة؛ لأنّ بذل المال على وجهه طهّره، وأنّ حبسه عن ذلك تلافه، فأتبعه الإيماء إلى أنّ بذل الفرج في غير موضعه نجاسة، وحفظه طهّره⁽³⁾.

مناسبة ورود صفة حفظ الفرج بعد الصفات السابقة:

وفي مجيء هذه الصّفة بعد الصّفات السابقة تنبيه لطيف على عظم خطر تحقّق هذه الصّفة؛ فإنّ حفظ الفرج يفتقر إلى إقامة الصّلاة، وإلى حفظ اللسان بالإعراض عن اللّغو؛ لأنه ربّ كلمة جرّت إلى الزّنى - عيادًا بالله من ذلك - وإلى تهيئة النفس للميل إلى الشرّ ومحاسنه وأوامره ونواهيه؛ ومن خير ما يُحقّق ذلك الزّكاة خصوصًا والإنفاق عمومًا، والله تعالى قال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى

عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45].

(1) القول النبوي المذكور جزء من حديث في سنن الترمذي، أبواب السفر، الحديث رقم: (614).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 15/ 14 - 15.

(3) البقاعي، نّظم الدرر: 108/ 13.

أداء الزّكاة
والإعراض عن
اللّغو سبيلان
لحفظ الفروج

حفظ الفرج
نتيجة لتحقيق
الصفات
السّابقة

غرض التعبير بالاسم الموصول وصلته:

صُدِّرت هذه الصِّفة - كسابقها - بالاسم الموصول **﴿وَالَّذِينَ﴾** في قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾** لبيان سبب آخر من أسباب فلاح المؤمنين، ووجه آخر من وجوه ما يستحقون به هذا الثناء بجعلهم من أهل الفلاح⁽¹⁾.

بيان سبب آخر
من أسباب فلاح
المؤمنين

نكتة تكرار الاسم الموصول وصلته، والإظهار في مقام الإضمار:

صَدَرَ النِّظْمُ القرآنيُّ كلَّ صفةٍ من صفات المؤمنين المُفلحين بالاسم الموصول وصلته للثناء على المؤمنين بما هم أهلُه، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ كلَّ صفةٍ من صفاتهم موجبةٌ للفلاح، وفي الإظهار في مقام الإضمار زيادةٌ تقريرٍ للخبر في ذهن السامع بعد تشوفه لمعرفته والوقوف على مضمونه⁽²⁾.

الثناء على
المؤمنين بصفات
فلاحهم
وتقريرهم عليها

فائدة التعبير بالجملة الاسمية **﴿هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾**:

لم يأت بيان القرآن بقوله في وصف المؤمنين هنا: (حفظوا فروجهم)، أو: (كانوا لفروجهم حافظين)، حتَّى لا يفت ذلك من عَصِدٍ ما تعنيه الجملة الاسميَّة من ثبات حفظهم لفروجهم ومدامتهم عليه في قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾** فحفظهم لفروجهم مُلَازِمٌ لهم في حياتهم لا يتخلَّف⁽³⁾؛ لأنَّه نتاج الأوصاف السابقة التي أعانت المؤمنين على تحقيق ذلك الحفظ لفروجهم.

ثبات المؤمنين في
حفظ فروجهم

معنى اللام في **﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾**:

اللام في قوله تعالى: **﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾** لامُ التَّقوية؛ لضعف العامل بالفرعية وبالتأخير عن معموله، وهذه التَّقوية من وجهين: تقديم

اللام لتقوية
اسم الفاعل
(حافظون)

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18، 15.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18، 15.

المعمول، وكون العامل اسماً⁽¹⁾؛ أي: أثبت اللام هنا تقويةً لاسم الفاعل ﴿حَفِظُون﴾⁽²⁾.

دلالة التعبير بـ ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ مادةً وصيغةً:

الفرج اسمٌ يجمعُ سَوَاءَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ، فالقُبْلَانِ وما حواليهما كُلُّهُ فَرْجٌ، وكذلك من الدَّوَابِّ⁽³⁾، ومعنى الفَرْجُ في اللُّغة: الفُرْجَةُ بين الشَّيْئَيْنِ، ولهذا سُمِّيَ ما بين قوائم الدَّابَّةِ الفُروج⁽⁴⁾، والمراد بالفُروج ههنا: فُروجُ الرِّجَالِ خاصَّةً لدلالة ما بعدهما عليهما، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ للإجماع على أنَّه لا يحلُّ للمرأة أن تطأ ما تملكه⁽⁵⁾.

بلاغة المجاز في التعبير عن العورة بالفروج:

قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَفِظُون﴾؛ أي: لعوراتهم الداخليَّة المُغلَّظَةِ حافظون، فإنَّ في إطلاقِ الفَرْجِ على العوراتِ الداخليَّةِ تجوُّزًا، وهذا شأنُ القرآنِ الكريمِ في استعمالِ الكناياتِ والمجازاتِ في مثلِ هذه القضايا، دون التَّعبيرِ عنها بأسمائها - إذ الأصلُ في معنى الفَرْجِ هو الجَيْبُ الَّذِي يَكُونُ في القميصِ أو الثَّوبِ عامَّةً - فينكشفُ ما بداخله ويُرى، فأطلقَ الفَرْجُ هنا على تلكِ العوراتِ من باب الاستعارة التَّصريحيَّةِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ انكشافِها سبيلٌ لانتهاكِ حَصَانَتِها والوقوعِ في الفاحشةِ⁽⁶⁾.

براعة الكناية في التعبير عن حُرمة الزَّنى بحفظِ الفُروج:

عبَّرَ النِّظْمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُروجِهِمْ حَفِظُون﴾ عن حُرمةِ الزَّنى بحفظِ الفُروجِ بطريقِ الكناية، ذلك

عمومُ سَوَاءِ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ، والمراد هنا خصوصُ الرِّجَالِ

سترُ الفُروجِ صيانةٌ للعوراتِ من المُحرَّماتِ

حفظُ الفُروجِ صيانةٌ لها عن الزَّنى المُحرَّم

(1) الألوسي، روح المعاني: 9/ 208.

(2) البقاعي، نِظْمُ الدُّرِّ: 13/ 107.

(3) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (فرج).

(4) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فرج).

(5) الرَّجَّاج، معاني القرآن: 4/ 6.

(6) السُّوكاني، فتح القدير: 3/ 645.

أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَسْتَعْمَلُ كَلِمَةً «لِفُرُوجِهِمْ» كَنَايَةً عَنِ الْعَوْرَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَسَتَرَ هَذِهِ الْعَوْرَاتِ لِأَجْلِ حِفْظِهَا مِنَ الزَّنى؛ لِأَنَّ كَشْفَهَا مَظَنَّةٌ لِحُدُوثِ الزَّنى الْمَحْرَمِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: «وَلَا تَقْرُبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» (٣٢) [الإسراء: 32]، وَالْمَقَامُ هُنَا فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ بِحِفْظِهِمْ فُرُوجَهُمْ، فِيهِ كَنَايَةٌ عَنِ التَّشْدِيدِ فِي شَأْنِ عَدَمِ حِفْظِ الْفُرُوجِ الْمُؤَدِّي لِفَاحِشَةِ الزَّنى^(١)، فَحِفْظُ الْفُرُوجِ يُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ الزَّنى، وَعَدَمُ الزَّنى مُؤَسَّسٌ عَلَى حُرْمَتِهِ.

نَكْتَةُ تَقْدِيمِ شِبْهِ الْجُمْلَةِ «لِفُرُوجِهِمْ»:

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «لِفُرُوجِهِمْ حَفِظُونَ» تَقَدَّمَتْ شِبْهُ الْجُمْلَةِ لِلْاهْتِمَامِ بِشَأْنِ حِفْظِ الْفُرُوجِ، وَلِكُونِهَا سَبِيلًا لِلْفُسَادِ وَالْإِفْسَادِ، فَأَمَرُهَا خَطِيرٌ وَعَدَمُ سَتْرِهَا يُؤَدِّي إِلَى هَتِكِ حُرْمَتِهَا^(٢)، وَفِي هَذَا التَّقْدِيمِ - كَذَلِكَ - إِيْذَانٌ بَأَنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ حِرْصًا شَدِيدًا فِي حِفْظِ فُرُوجِهِمْ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الْإِضَافَةِ أَنْ تُقَيَّدَ شَدَّةُ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهَا عَلَى مَعْنَى لَامِ الْإِخْتِصَاصِ؛ أَيِ: اخْتَصَّ الْمُؤْمِنُونَ بِحِفْظِ فُرُوجِهِمْ، وَأَنَّ حِفْظَهَا صِفَةٌ خَاصَّةٌ بِهِمْ^(٣).

غَرَضُ التَّعْبِيرِ عَنِ الْفُرُوجِ بِالْحِفْظِ:

عَبَّرَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ عَنِ الْفُرُوجِ بِالْحِفْظِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «لِفُرُوجِهِمْ حَفِظُونَ» لِأَغْرَاضٍ عَدِيدَةٍ؛ أَحَدُهَا: ضَرُورَةُ صِيَانَتِهَا عَنِ رَجَسِ الْحَرَامِ الْمَعْنَوِيِّ وَالْمَادِّي؛ أَمَّا الْمَعْنَوِيُّ فَهُوَ مَا فِي الْحَرَامِ مِنْ حُبِّثٍ يُطَهِّرُ نَفْسَهُ مِنْهُ؛ وَأَمَّا الْمَادِّيُّ فَهُوَ مَا يَكُونُ فِي الزَّنى مِنْ تَعَرُّضٍ لِأَمْرَاضٍ خَبِيثَةٍ، وَثَانِيهَا: الْاسْتِمْسَاكُ وَالتَّحْفُظُ بِالْعِفَّةِ، وَالْأَوَّلُ يَرْمِي مَاءَهُ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، لِيُحْفَظَ لَهُ نَسَبُهُ، وَثَالِثُهَا: التَّقْيُّدُ؛ أَيِ:

الاهتمام
بشأن الفروج
لحفظها،
واختصاص
المؤمنين
بصيانتها

ضرورة صيانة
الفروج وتعقيها
والتقيد فيها
بالحلال

(١) الْبِقَاعِي، نَظْمُ الدَّرَرِ: 255/5، وَأَبُو السُّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 453/4، وَالْأَلُوسِي، رُوحُ الْعَالِي:

205/10

(٢) الْأَلُوسِي، رُوحُ الْعَالِي: 208/9.

(٣) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 10/18، 13، 15.

ليسوا مُنطلقين يُلقونها في أيِّ مكان، وعلى أيِّ امرأةٍ، كلُّ يَنْزُو كما تنزوا الحيوانات⁽¹⁾.

معنى الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾:

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ استثناء من عموم مُتعلقات الحفظ التي دلَّ عليها حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾؛ أي: حافظوها على كلِّ ما يُحفظُ عليه إلا المتعلِّق الذي هو أزواجهم، أو ما ملكت أيماهم، فضمن (حافظوا) معنى عدم البذل، يُقال: احفظ عليَّ عنانَ فرسي، كما يُقال: أمسك عليَّ، كما في آية: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: 37]، والمراد: حلِّ الصنفيين من بين بقية أصناف النساء⁽²⁾.

نكتة التعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾:

عبّر بيان النظم القرآني بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾؛ أي: اللاتي ملكوا أبضاعهنَّ بعقد النكاح، وهذا يقتضي علو الذكر، فناسبه التعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾⁽³⁾، ومن ظلال ﴿عَلَىٰ﴾ التفسير الشديد من تعدي أصحاب الفروج بها على غير ما يحلُّ لهم.

دلالة شبه الجملة ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ على محذوف:

دلَّ شبه الجملة ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ على محذوف؛ وتقديره: (إلا) والين على أزواجهم، أو قوامين عليهنَّ؛ من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها، فخلَّف عليها فلان، ونظيره كان زياد على البصرة؛ أي: والياً عليها، ومنه قولهم: ثلاثة تحت فلان، ومن ثمة سُميت المرأة فراشاً، والمعنى أنَّهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم، أو تعلَّق بمحذوف يدلُّ عليه قوله: ﴿غَيْرُ مُلْمِئِينَ﴾، كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم؛ أي:

جُلُّ الأزواج
ومملوكات
اليمن من سائر
النساء

علوُّ ذكر ما أحله
الله

الولاية والقوامة
على الأزواج
وجلهم لهم

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5046 / 15 - 5047.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18 / 13 - 14.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 108 / 13.

يُلامُونَ على كلِّ مباشرةٍ إلَّا على ما أُطْلِقَ لهم، فإنَّهم غيرُ مَلُومِينَ عليه، أو تجعله صلةً لـ: ﴿حَفِظُونَ﴾ من قولك: احفظ عليَّ عَنانَ فرسي، على تضمينه معنى النَّفي، كما ضُمِّن قولهم: نشدتك بالله إلَّا فعلتُ، معنى: ما طلبتُ إليك إلَّا فَعَلَك؛ يعني أنَّ صورته إثبات، ومعناه نفي⁽¹⁾.

الموقعُ النَّحْوِيُّ لقوله: ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ جاء بعد الاستثناء بـ ﴿إِلَّا﴾ الذي هو استثناءٌ من عموم مُتعلِّقاتِ الحفظِ التي دُلَّ عليها حرفُ ﴿عَلَى﴾، وبهذا يكون التقدير: حافظوها على كلِّ ما يُحَفَظُ عليه إلَّا المتعلِّق الذي هو ﴿أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، فضمِّن ﴿حَفِظُونَ﴾ معنى عدم البَدَل، فيكون ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ جارًّا ومجرورًا مُتعلِّقًا بالمُسْتثنى بـ ﴿إِلَّا﴾؛ أي: حافظون لها من كلِّ أحدٍ إلَّا من أزواجِهِمْ؛ أي: صانوها عن كلِّ فَرْجٍ إلَّا على فُروجِ أزواجِهِمْ⁽²⁾، ويمكن أن تكون ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالًا من ضميرِ ﴿حَفِظُونَ﴾؛ أي: حافظون لها في جميع الأحوال إلَّا حالَ كونِهِم والين أو قَوَّامين على أزواجِهِمْ⁽³⁾، ويمكن أن تكون ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ يدلُّ عليه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ كأنه قيل: (يُلامون على كلِّ مباشرٍ إلَّا ما أُطْلِقَ لهم فإنَّهم غيرُ مَلُومِينَ)⁽⁴⁾، والوجهُ الأوَّلُ أوَّلَى لا تُساقه مع ظاهرِ السِّياق.

صيانةُ الفُروجِ
عن كلِّ فَرْجٍ
إِلَّا عن فُروجِ
أزواجِهِم

(1) الرَّمُخْشَرِي، الكَشَاف: 26/3.

(2) العَكْبَرِيُّ، التَّبَيَّن: 147/2، وابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِير: 14/18.

(3) العَكْبَرِيُّ، التَّبَيَّن: 147/2، وأبو السَّعُود، إرشاد العقل السَّليم: 50/4.

(4) أبو السَّعُود، إرشاد العقل السَّليم: 50/4، ولم يجوزِ العَكْبَرِيُّ هذا الوجه إذ قال: "ولا يجوز أن يتعلَّق بـ ﴿مَلُومِينَ﴾ لأمرَين: أحدهما: أنَّ ما بعد (إِنَّ) لا يعمل فيما قبلها، والثَّاني: أنَّ للضاف إليه لا يعمل فيما قبله، وإنَّما تعلَّقت على يحافظون على اللعنى، ويجوز أن تتعلَّق بفعلٍ دُلَّ عليه ﴿مَلُومِينَ﴾ أي: إلَّا على أزواجِهِم لا يُلامون، يُنظر: العَكْبَرِيُّ، التَّبَيَّن في إعراب القرآن: 147/2.

الإباحة لصنفي
النساء الحرائر
والإماء

معنى ﴿أَوْ﴾ في: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾:

﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾؛ فـ ﴿مَا﴾ في موضعٍ خفضٍ معطوفة على ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾، وهي بمعنى الإباحة؛ أي: إباحة بين هذين الصنفين اللذين أحلهما الله للأزواج دون غيرهما: الأزواج من النساء الحرائر والإماء، أو المعنى: (لفروجهم حافظون إلا في حالٍ ما أباحه الله لهم في حال تزوجهم أو تسريهم)⁽¹⁾.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾:

التعبير عن الإماء باسم ﴿مَا﴾ الموصولة، غالب استعمالها لغير العاقل، وقد جرى هنا على خلاف الغالب في عادة استعمال العرب فاستعمل للعاقل⁽²⁾، والتعبير بـ ﴿مَا﴾ يفيد تعميم وطء ما ملك باليمين، وهو مختص بالإناث⁽³⁾، وللفرق بينهن وبين الحرائر⁽⁴⁾.

بلاغة المجاز العقلي في إسناد الملك إلى أيمانهم:

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾؛ أي: سراريهم؛ فأسند الملك إلى الأيمان كناية عن ملك صاحبهن لرقبتهن، إمّا بالتسري بهن لنفسه، وإمّا بيعهن أو شرائهن، فقد اجتمعت في هذه الأمة السرية وصفان: أحدهما: الأنوثة؛ والآخر: كونها ملكاً لصاحبها⁽⁵⁾.

سرّ التعبير عن الإماء بملك اليمين:

درج البيان القرآني على تسمية الإماء والسراري بملك اليمين تفاؤلاً باليمن؛ لأنّ اليمين مخصوصة في معهود الاستعمال العربي بالمحسن.

الإماء ملك
لصاحبهن
يتصرف فيهن

إطلاق ملك
اليمين على
السراري تفاؤلاً
باليمن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 261 / 23.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14 / 18.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 549 / 7.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 108 / 13.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 262 / 23.

وذهب جمعٌ من أهل العلم إلى أنّ إطلاق (ملك اليمين) على الأمة أو الجارية هو من باب إسناد الفعل إلى السبب؛ لأنّ الغالب أنّ اليمين سببٌ في الحصول عليهنّ، وفي كلّ هذه الحالات يكون التعبير من باب المجاز، حيث أسند الملك إلى السبب.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ للإفصاح؛ لأنها تُقْصَحُ في شرطٍ مُقَدَّرٍ مأخوذٍ من الكلام؛ أي: فإذا كان ذلك على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم فإنّهم غيرُ ملومين⁽¹⁾؛ فالفاء تفرّيعٌ للتّصريح على مفهوم الاستثناء الذي هو في قوّة الشرط - كما تقدّم - فأشبهه التّفرّيع عليه جواب الشرط، فقُرئ بالفاء تحقيقاً للاشتراط⁽²⁾.

حفظ فروجهم
إلا مع أزواجهم
وإمائهم يمنع
لومهم

تتابع المؤكّدات (إنّ) والجملة الاسميّة:

المؤكّدات (إنّ) والجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تصريحٌ بزائدٍ على حكم مفهوم الاستثناء؛ لأنّ الاستثناء لم يدلّ على أكثر من كَوْنٍ عدم الحفظ على الأزواج والمملوكات لا يمنع الفلاح، فأريد - زيادة بيانٍ وتأكيدٍ - أنّه أيضًا لا يوجب اللّوم الشرعيّ، فيدلّ هذا بالمفهوم على أنّ عدم الحفظ على من سواهنّ يوجب اللّوم الشرعيّ ليحذره المؤمنون⁽³⁾.

تأكيد انتفاء
اللوم الشرعيّ
على من حفظ
فرجه على ما
أحلّ له

دلالة التعبير بـ ﴿مَلُومِينَ﴾ مادّةً وصيغةً:

اللّوم: الإنكارُ على الغيرِ ما صدرَ منه من فعلٍ أو قولٍ لا يليقُ عند اللائم، وهو مرادفُ العَدْلِ وأضعفُ من التّنيف⁽⁴⁾، فمادّة اللّوم قائمةٌ على عدلِ الإنسانِ بنسبته إلى ما فيه لومٌ⁽⁵⁾، وذكر اللّوم هنا

كيف يُلادَمَ مَنْ
يأتي ما أحلّ الله
له؟!

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5046 / 10.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14 / 18.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14 / 18.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15 / 18.

(5) الزّاغب، المفردات: (لوم).

تتبيهاً على أنه إذا لم يُلاموا لم يُفعل بهم ما فوق اللوم، فهم لا يُلامون على الحلالِ بوطءِ أزواجهم أو إمائهم⁽¹⁾، ولذلك جاءت ملومين بهذه الصيغة تعبيراً على أنهم لم يُعرضوا أنفسهم للوم لم يستحقوه في عدم حفظ فروجهم من هذين الصنفين: أزواجهم وما ملكت أيماهم⁽²⁾.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَمَنْ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ تُفيدُ ترتيبَ ما بعدها على ما قبلها؛ أي: إذا كان الحلال في هذه الدائرة؛ فهو غيرُ عدوانٍ على الأسر، وعلى المجتمع وعلى النفس، فيترتبُ على التحريم السابق منع ابتغاء المحرمات، والابتغاء هو الطلب الشديد الذي يؤدي إلى العدوان⁽³⁾.

معنى حرف (مَنْ) في السياق:

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ اسمٌ موصولٌ عامٌّ، أو أداة شرط يُحمل على لفظها بالافراد والتذكير، وعلى معناها بمطلق الجمع؛ وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾؛ فعبّرت (مَنْ) عن ﴿فَأُولَئِكَ﴾؛ أي: العادون، وفيه تحذيرٌ شديدٌ بعد ذلك من التفريع بأن المذكور في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾؛ أي: وراء الأزواج والمملوكات؛ أي: غير ذينك الصنفين فيخشى أن تتغلب شهوة الفرج على حافظها، فيقع فيما وراء ذلك مما حرّمه الله عليه⁽⁴⁾.

سِرُّ حمل (مَنْ) على لفظها ومعناها:

حُمِلَ على معنى (مَنْ) بالافراد والتذكير في قوله: ﴿فَمَنْ أَبْتَغَى﴾؛

عدمُ العدوان
مُترتبٌ على
الحلالِ الطَّيِّبِ

مَنْ ابتغى ما
وراء ما أحله
الله وقَعَ في
الحرام

كلُّ نفسٍ
بما كسبت
رهينةً، والأسرة
صورةٌ مُصَغَّرةٌ
للمجتمع

(1) مُقاتل بن سليمان، تفسير مُقاتل: 29 / 2، والبغوي، معالم التنزيل: 410 / 5.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 50 / 4.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5047 / 10 - 5048.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14 / 18.

فَأَمَّا الْإِنْفِرَادُ فَلَأَنَّ ﴿كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [الذِّكْر: 38]، وَأَنْتَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْمَسْئُولُ أَوَّلًا وَأَخِيرًا عَنْ فَعْلِكَ وَقَوْلِكَ وَعَمَلِكَ وَنِيَّتِكَ؛ وَإِنْ كَانَ لَذَلِكَ مَدْخُلٌ فِي إِيجَادِهِ مِنْ غَيْرِكَ، وَأَمَّا التَّذْكِيرُ فَلَأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِالرِّجَالِ، وَحُمِلَ عَلَى مَعْنَاهَا بِالْجَمْعِ الْمَذْكَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ - وَتَوَجَّهَ التَّذْكِيرُ هُنَا كَسَابِقَهُ مَعَ الْإِنْفِرَادِ -؛ إِرْشَادًا إِلَى أَنَّ عَظِيمَ الْأَثَرِ السَّلْبِيِّ لِمَعْنَى الشَّرْطِ فِي الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ؛ فَإِنَّ مَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ أَفْسَدَ أَسْرَتَهُ وَهَدَمَهَا، وَأَفْسَدَ أَسْرَةَ مَنْ فَعَلَ بِهَا ذَلِكَ الْفُحْشَ وَتَلَكَ الْفَاحِشَةَ، وَالْأَسْرَةُ صُورَةٌ مُصَغَّرَةٌ لِلْمَجْتَمَعِ الْكَبِيرِ؛ فَهُوَ يَنْهَدِمُ بَانْهَدَامَهَا.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ:

جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ تَقْرِيبًا عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلُومِينَ﴾ الَّذِي أَشْبَهَ التَّفْرِيعَ عَلَيْهِ جَوَابَ الشَّرْطِ، فَقُرِئَ بِالْفَاءِ تَحْقِيقًا لِلْإِشْتِرَاطِ، وَزِيدَ ذَلِكَ التَّحْذِيرُ تَقْرِيرًا بِأَنْ فُرِعَ عَلَيْهِ ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾؛ لِأَنَّ دَاعِيَةَ غَلَبَةِ شَهْوَةِ الْفَرْجِ عَلَى حِفْظِ صَاحِبِهِ إِيَّاهُ غَرِيزَةٌ طَبِيعِيَّةٌ يُخْشَى أَنْ تَتَغَلَّبَ عَلَى حَافِظِهَا فَيَتَعَدَّى إِلَى مَا وَرَاءَ الْأَزْوَاجِ وَالْمَمْلُوكَاتِ⁽¹⁾.

غَرَضُ التَّعْبِيرِ بِالِابْتِغَاءِ مَادَّةً وَصِغَةً:

الِابْتِغَاءُ: افْتِعَالٌ مِنَ الْبَغْيِ، وَالْبَغْيُ فِي ذَاتِهِ فِي مَعْنَى التَّعَدَّى، وَطَلِبُ سِوَى الْحَلَالِ، وَقَصْدُ الْفُحْشِ وَالْحَرَامِ⁽²⁾، وَهُوَ هُنَا بِصِغَتِهِ ﴿ابْتَغَى﴾ يَدُلُّ عَلَى قَصْدِ مَا سِوَى الْأَزْوَاجِ وَالْوُلَدِ بِمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالسَّعْيُ لِلانْحِرَافِ، فَلَا يَقِفُ أَوْلَئِكَ عِنْدَ الْحَلَالِ؛ بَلْ يَطْلُبُونَ

تَقْرِيرُ التَّحْذِيرِ
مِنَ الْإِعْتِدَاءِ
مِمَّنْ ابْتَغَى وَرَاءَ
مَا أَحَلَّ اللَّهُ

قَصْدُ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ ابْتِغَاءً
لِلْفُحْشِ وَحَرَصَ
عَلَيْهِ

(1) ابن عاشور، التَّحْذِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 18 / 14.

(2) الرَّجَاحُ، مَعَانِي الْقُرْآنِ: 4 / 7، وَالرَّغَبُ، الْفُرْدَاتُ: (بَغْي).

الشَّهَوَاتِ بِشِدَّةٍ تَوْدِي بِهِمُ إِلَى الانْحِرَافِ عَنِ الْجَادَّةِ⁽¹⁾، وَالصَّيْفَةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا يُبْتَغَى مِنْ غَيْرِ مَا يَحِلُّ مِنَ النِّسَاءِ لَا يُبْتَغَى إِلَّا بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ وَتَكْلُفٍ وَكَمَالٍ رَغْبَةٍ.

نكتة التعبير بـ ﴿وَرَاءَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾: أي: سواء، وعبر عنه بـ ﴿وَرَاءَ﴾ إشارةً إلى أنه انحطاطٌ في الرتبة، وإلى أنه وراء الإنسانية المستقيمة، وانحرافٌ في القصد، وضلالٌ في الفعل⁽²⁾.

دلالة التعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَلِكَ﴾:

عبر النظم الكريم في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَبَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ بالإشارة للبعيد ﴿ذَلِكَ﴾، وهو إشارة إلى الأزواج والإماء؛ أي: من ابتغى وراء ما أحله الله له من الأزواج والإماء؛ فقد تعدى حدود الله، واستعمال الإشارة للبعيد بـ ﴿ذَلِكَ﴾ لبعد الابتغاء عما أحل الله وطلب ما سواه مما حرّمه الله⁽³⁾؛ ففي التعريف في: ﴿ذَلِكَ﴾ تعظيمٌ للأزواج والإماء؛ على تقدير رجوعه إليهنّ، وتعظيمٌ لقضاء شهوة الفرج في ما أحله الله في الأزواج والإماء؛ على تقدير تفسيره بهذا.

بلاغة الكناية في التعبير عن الزنى بـ ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾:

كنى النظم الكريم عن الزنى بقوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾: أي: سوى ما أحله الله من الفروج في الأزواج والإماء، وأصل وراء: اسم المكان الذي في جهة الظهر، ويُطلق على الشيء الخارج عن الحد المحدود تشبيهاً للمتجاوز الشيء بشيء موضوع خلف ذلك الشيء؛ لأنّ ما كان من أعلام الشخص يجعل بين يديه وبمراى منه، وما كان غير ذلك يُبَدَّ وراء الظهر⁽⁴⁾.

في الابتغاء
المُشار إليه
ابتعاداً عن رضا
الله

عادة القرآن
الكريم في إيراد
الألفاظ الأدبية

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5048 / 10، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 107 / 12.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5048 / 10.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15 / 18.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15 / 18.

معنى الفاء في ﴿فَأُولَئِكَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ رابطة لجواب الشرط بأداته وفعله ﴿فَمَنْ أَتَعَى﴾، وهي تُفيدُ رِبْطَ ما جاء بعدها من العدوان بما سَبَقَها من ابتغاء الحرام - رِبْطًا جازمًا حاسمًا⁽¹⁾.

نكتة التعبير باسم الإشارة للبعيد (أولئك):

جاء التعبير باسم الإشارة للبعيد (أولئك) في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾؛ لزيادة تمييزهم بهذه الخصلة الذميمة، وليكون وصفهم بالعدوان مشهورًا مقررًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]⁽²⁾؛ فيكون فيه كلُّ ذمٍّ لهم؛ فيتبع ذلك التفسير الشديد من تلك الخصلة القبيحة.

فائدة التعبير بالجملة الاسمية:

أفاد التعبير بالجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ثبات وملازمة هذه الصفة القبيحة لأولئك الذين تعدوا حدود الله، فاستبدلوا بالحلال الطيب في أزواجهم وإمائهم فيما وراء ذلك الحرام الخبيث⁽³⁾.

بلاغة القصر بتعريف طرفي الإسناد وضمير الفصل:

ورد قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ وحمل معه بلاغة القصر من خلال طرفي الإسناد في المسند: ﴿فَأُولَئِكَ﴾، وفي المسند إليه: ﴿الْعَادُونَ﴾ وتوسطهما ضمير الرفع المنفصل ﴿هُمُ﴾ - الذي يُفيدُ تقوية الحكم - وهو قصرٌ موصوفٍ على صفة، فقد قصر النظم الكريم ابتغاء ما حرم الله دون ما أحله على صفة الاعتداء؛ أي: وصف مَنْ طلب الحرام في الفروج دون ما أحله الله

رَبَطَ الْعُدَّانَ
بِابْتِغَاءِ الْحَرَامِ

زيادة تمييز مَنْ
لم يحفظ فَرْجَهُ
عن الحرام
بهذه الخصلة
القبيحة

مَنْ لَمْ يَحْفَظْ
فَرْجَهُ عَنْ
الْحَرَامِ ثَبَتَتْ لَهُ
صِفَةُ الْمُعْتَدِي

المتجاوزون غير
الأزواج والإماء
هُمُ الْبَالِغُونَ
غاية العدوان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15 / 18.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15 / 18.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15 / 18.

له من الأزواج والإماء بآنه معتد؛ أي: هم البالغون غاية العدوان على الحدود الشرعية⁽¹⁾.

معنى (أل) في ﴿الْعَادُونَ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿الْعَادُونَ﴾ للاستحقاق والمبالغة؛ أي: من ظلموا وتجاوزوا الحلال إلى الحرام في أمر الفروج؛ فقد استحقوا الوصف الثابت، ولزمتهم صفة ﴿الْعَادُونَ﴾؛ فقد عدوا، وجاروا، وظلموا، وبالغوا في تعدي الحدود⁽²⁾.

دلالة التعبير بـ ﴿الْعَادُونَ﴾ مادةً وصيغة:

العادي هو المعتدي؛ أي: الظالم؛ لأنه عدا على الأمر؛ أي: جاز وظلم، وعدا: جاوز⁽³⁾، وهما يرجعان إلى أصل واحد؛ لأن الظالم مُجَاوِزٌ مَا حُدَّ لَهُ؛ فالعادون هم الجائرون الظالمون⁽⁴⁾ الذين يتعدون الحلال إلى الحرام⁽⁵⁾، وبلاغة التعبير بمادة (عدا) دون مادة (ظلم) كامنة في التنبيه على أن عرض الغير حمى مصون محفوظ لا ينبغي الحوم حوله ولا التطرق إليه ولا التعرض له ولا تجاوزه بحال، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه؛ فلفته إلى هذا المعنى أضعف من لفت معنى: ﴿الْعَادُونَ﴾ إليه.

❁ الفرق المجمعية:

الفروج والعورات:

الفروج: جمع فرج، وأصل معناه: الشق، وهو الفرجة بين الشَّيْئَيْنِ⁽⁶⁾، والفرج: هو ما بين رجلي الفرس.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15 / 18.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 105 / 13، 108.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجاهلي، الصحاح: (عدا).

(4) الزجاج، معاني القرآن: 7 / 4.

(5) الجسمي، التهذيب: 193 / 6.

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (فرج).

مَنْ ظَلَمَ
وَتَجَاوَزَ؛
استحقَّ صفةَ
الاعتداء

الظُّلْمُ والجَوْرُ
والتَّجَاوُزُ وجوهُ
لمعنى التعدي

الْفَرْجُ والعَوْرَةُ
يَشْتَرِكَانِ فِي
مَعْنَى الشَّقِّ
فِي الشَّيْءِ،
وَيَتَعَاوَرَانِ فِي
الِإِطْلَاقِ

وتطلقُ الفُروجُ على فُروجِ الرِّجال والنِّساء، وهي ما يُسمَّى بالَعَوْرَةِ المَغْلَظَةِ، والفَرْجُ اسْمٌ يجمعُ سَوَاتِ الرِّجال والنِّساء، فالقُبْلان وما حواليهما كلُّه فرَجٌ⁽¹⁾.

والَعَوْرَةُ: سِوَةُ الإنسان؛ وذلك كناية، وأصلها من العار؛ وذلك لما يلحقُ في ظهوره من العار؛ أي: المَذَمَّة، ولذلك سُمِّيَ النِّساءُ عَوْرَةً؛ فقد ورد في الحديث الشريف: "المرأة عورة"، فإذا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ"⁽²⁾، ومن ذلك العَوْرَاءُ للكلمةِ القبيحة، والعَوَارُ والعَوْرَةُ: شَقٌّ في الشَّيءِ كالثُّوبِ والبيتِ ونحوه، قال تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: 13]؛ أي: مُتَخَرِّمَةٌ مُمَكَّنَةٌ لما أرادها، ومنه قيل: فلانٌ يحفظ عَوْرَتَه؛ أي: خَلَلَه، وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَّكُم﴾ [النور: 58]؛ أي: نصفُ النَّهار، وآخرُ اللَّيْلِ، وبعدَ العشاءِ الآخرة، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: 31]؛ أي: لم يبلُغوا الحُلُم⁽³⁾.

الْعَدُوِّ وَالْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ وَالْعَتَوِّ:

الْعَدُوُّ: عَدَا يَعْدُو عَدَوًّا، وَعَدَاهُ يَعْدُوهُ: جَاوَزَهُ، والتَّعَدَّى: مَجَاوَزُهُ الشَّيْءَ إِلَى غَيْرِهِ، وَعَدَا؛ أي: جَارَ وَظَلَمَ، وَعَدَا: جَاوَزَ، وهما يرجعان إلى أصلٍ واحد؛ لأنَّ الظَّالِمَ مَجَاوِزٌ ما حُدَّ له⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿الْعَادُونَ﴾؛ أي: الجائرون الظَّالمون⁽⁵⁾، المتجاوزون لحدودِ الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: 1].

والبَغْيُ: شِدَّةُ الطَّلَبِ لما ليس بحقٍ بالتَّغْلِيْبِ، وأصله في العربيَّة: شِدَّةُ الطَّلَبِ، ومنه يقال: دَفَعْنَا بَغْيَ السَّمَاءِ خَلْفَنَا؛ أي: شِدَّةَ مَطَرِهَا، وَبَغْيُ الجَرْحِ يَبْغِي، إذا تَرَاقَى إِلَى فسادٍ يرجع إلى ذلك، وكذلك

المُفْرَدَات
جميعها فيها
معنى التَّجَاوُزِ
وَالظُّلْمِ وَأَشَدُّهَا
الطُّغْيَانُ

(1) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (فرج).

(2) الترمذي، الشَّن، برقم: (1173) واللفظ له، والبرز، السند، برقم: (2061)، وابن خزيمة، الصحيح، برقم: (1685) مُطَوَّلًا.

(3) الزَّاغِب، المُفْرَدَات: (عور).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهرى، الصَّحاح: (عدا).

(5) الرَّجَّاح، معاني القرآن: 7/4.

البغاء، وهو الزنى، وقيل في قوله تعالى: ﴿وَالْإِنَّمِ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 33] أنه يريد التَّرسُّ على النَّاسِ بِالْغَلْبَةِ والاستطالة⁽¹⁾.

والطُّغيانُ: مجاوزة الحدِّ في المكروه مع غلبةٍ وقَهَرٍ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ [الحاقة: 11]، يُقال: طغى الماء إذا جاوز الحدَّ في الظلم.

والعُتُو: المبالغة في المكروه، فهو دون الطُّغيان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8]، قالوا: كلُّ مُبالغٍ في كِبَرٍ أو

كُفْرٍ أو فسادٍ فقد عتا فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿بَرِيحٌ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6]؛ أي: مُبالغة في الشدَّة، ويُقال: جبارٌ عاتٍ؛ أي: مُبالغٌ

في الجبريَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: 8]؛ يعني: أهلها تكبروا على ربِّهم فلم يُطيعوه⁽²⁾.

اللُّوم والتَّثريب والتَّفنيد:

اللُّوم: عدلُ الإنسان بنسبته إلى ما فيه لومٌ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: 22]، واللُّومُ قد يكون لما يفعله الإنسان في الحال، ولا يُقال لذلك تقريعٌ وتثريبٌ وتوبيخٌ⁽³⁾، واللُّومُ يكون على الفعل الحسن، ولا يكون التَّثريبُ إلَّا على قبيح.

والتَّفنيدُ: تعجيزُ الرَّأي، يُقال: فنَّدهُ إذا عَجَزَ رأيه وضعَّفه، والاسْمُ: الفنْدُ؛ وهو الخطأ في القول والرَّأي، وأصلُ الكلمة الغِلْظُ؛ ومنه قيل للقطعة من الجبل: الفنْدُ بكسرِ الفاء وفتحِها.

والتَّثريبُ: الاستقصاءُ في اللُّوم والتَّعنيف، وثَرَّبَ عليه تَثريبًا: قَبَّحَ عليه فعله، وأصلُه من (الثَّرب)؛ وهو شحمُ الجوفِ رقيق؛ لأنَّ البلوغَ إليه هو البلوغُ إلى المواضعِ الأقصى من البدن، والتَّثريبُ شبيهٌ بالتَّقريع والتَّوبيخ؛ تقول: وبَّخه وقرَّعه وثرَّبه بما كان منه⁽⁴⁾.

(1) العسكري، الفروق، ص: 341 - 342، والزَّاغِب، والفُردات: (بغى).

(2) العسكري، الفروق، ص: 337، والزَّاغِب، والفُردات: (طغى) و(عتا).

(3) العسكري، الفروق، ص: 116 - 117، والزَّاغِب، والفُردات: (لوم).

(4) العسكري، الفروق، ص: 116 - 117، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (فند) (ثرب).

اللُّومُ على
الفعل الحسن،
والتَّثريبُ
على القبيح
مع التَّوبيخ،
وفي التَّفنيد
محااجة

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.

مج. 35، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك : 978-9948-732-77-8

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»